الوضع الحقيقي لمشكلة

جابر بن حيـــان

الأستاذ أحمد زكي صالح

(تتمـــة)

مناقشة رأي الأستاذ كراوس

الأستاذ كراوس حيران بين أمرين : أولهما أنه يريد أن يثبت أن جابراً إنما عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع من الهجرة ، والأمر الثاني هو البرهنة على عدم وجود هذه الشخصية العلمية الإسلامية التي تسمى جابر بن حيان؛ ولكن هل تأتى له أن يصل إلى نتيجة أحسن مما وصل إليه أساتذته وغيره من المستشرقين؟

هذا ما نرى الجواب عليه فيما يلي :

يريد الأستاذ كراوس أن يبين أولاً أن جابراً إن كان له وجود فهو إنما عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري ، معتمداً في ذلك على الدراسة المقارنة ، فهو أولاً يقارن آراء جابر الكلامية الشيعية بآراء غيره من رجال الفرق الشيعية الأخرى ، ويخرج من هذه الدراسة المقارنة بأن آراء جابر بن حيان إنما تشابه وتماثل آراء القرامطة والاسماعيلية اللتين ابتدأتا تلمعان دورهما منذ سنة ٢٦٠ هـ أي في النصف الثاني من القرن الثالث ، ولكن نحن نسلم بكل ما جاء في هذه الدراسة المقارنة بين الآراء الكلامية والفلسفية لجابر بن حيان ، وبين تلك التي قالت بها فرقتا الاسماعيلية والقرامطة ، ولكن الذي لا يمكن التسليم به هو أن وجود هذا التشابه بين الآراء يصح دليلاً على أن جابراً معاصر لهما ، بل الأقرب إلى العقل أن جابراً وضع أسس النظريات الكلامية والفلسفية والإلهية التي توسعت فيها فيما بعد الاسماعيلية والقرامطة

ومن الجلي الواضح لدى كل من درس علم الكلام أن فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة ، وكانت أولى من أسس المذاهب الدينية على أسس فلسفية ، حتى أن البعض ينسب فلسفة خاصة لعلي بن أبي طالب

وعلى هذا فنحن لا نسلم برأي الأستاذ كراوس ، وهو أن جابراً عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع من الهجرة ، وعلى ذلك فنحن ننتقل إلى مناقشة رأيه الثاني ، وهو عدم وجود

حملوها إلى البيت ، وأرقدوها في الفراش ، وتسللوا وتركوها بين أمها وإخوتها ، ومعها مندوب من الرقص ليقف على خدمتها ريثما يطمئن على صحتها ... ولكنها ظلت في غيبوبة تامة ... ولم تفق وإن كانت تردد نداءها للأستاذ

ولم يكن أحد قد علم بشيء مما دار بينهما ، فلم تر أمها إلا عجباً في انقطاع أستاذها عنها ، فأرسلت إليه تستدعيه ، ولكن الرسول عاد يقول لها إن الأستاذ مريض هو أيضاً وإن لم يكن طريح الفراش . فعادت وأرسلت إليه فجاءها ...

دخل إلى تلميذته المريضة متثاقلاً من تعبه ، محطماً من تلك اللطمة التي تلقاها إذا اعتبرته واحداً من الناس ، من هؤلاء الناس

جلس إلى جانبها ، ومد يده فأمسك بيدها ، ففتحت عينيها فلما رأته قالت له بصوت متكسر :

— سامحني يا أستاذ

— إنك لم تسيئي إليّ ، فليس ما حدث إلا قضاء الله ، وأنا الذي أرجو أن تسامحيني أنت

— إذن فقبلني ...

فقبلها ... ولكن في جبينها ، ومكث عندها ما مكث ثم مضى ولكنه لم يمض إلى بيته ، ولم يعرف بعد ذلك أحد إلى أين مضى ثم أذيع أنه مات

أما هي ... فقد انهارت بعد ذلك وأصبحت راقصة كبقية الراقصات ...

غير أنها كانت تسكر أحياناً ، وتحن في السكر ، وعندئذ كانت إذا رقصت نظرت إلى فضاء ما

وعندئذ كانت تلم بها أطياف من المجد القديم ، وعندئذ كان يتهامس المقربون منها والذين عرفوا قصتها قائلين : « أستاذها يوحي لها »

فريد أحمد شوقي

شخصية جابر بن حيان ، وأن المؤلفات المنحولة لجابر بن حيان ، إنما هى من أعمال مدرسة فى القرن الرابع للهجرة

يقول الأستاذ رسكا : « إن المسألة لا يمكن أن تفسر هذا التفسير البسيط الساذج وهو أنها أعمال مدرسة استمرت عدة قرون » . ولكن يظهر أن الأستاذ كراوس أخذ بشطر من هذا التفسير على الأقل ، إذ أنه فسرها على أنها من أعمال مدرسة وجدت فى القرن الرابع ، ولكن هذا التفسير كذلك ينطبق عليه قول رسكا من أنه تفسير بسيط ساذج ، ونحن نسأل الأستاذ كراوس : هل يمكن لهذا التفكير المنسجم المطرد أن يكون تفكير أفراد كثيرين ؟ ؟

نحن نفهم من المدرسة عدة أشخاص معتنقين مذهباً واحداً واضعين نصب أعينهم أغراضاً واحدة يعملون على تحقيقها ، يقسمون العمل فيما بينهم فلا يخرجون كتاباً إلا إذا بحث وفحص من كل الوجوه كما هو حال « إخوان الصفاء » ، ولكن هل نلاحظ هذا فى أعمال جابر بن حيان ؟ ؟ كلا فكثيراً ما عاد جابر فى مؤلفاته يشرح بعض النظريات التى سبق أن قال بها ويكمل بعض الآراء التى وصل إليها . أضف إلى هذا أن تفكير جابر بن حيان لا يدل على تفكير مدرسى ولا يمكن بأية حال أن يدل على ذلك، إذ أن شخصية جابر تظهر فى جميع مؤلفاته على السواء بنفس الروح وبمظهر واحد وأسلوب فذ . على عكس التفكير المدرسى فإنه إما أن يكون خلواً من الروح المميزة له على الإطلاق أى يتلاشى الفرد فى الجماعة ، وهذا بعيد جداً عن مؤلفات جابر ، أو أن تظهر فيه شخصية الأفراد المؤلفين فتختلف روح العمل والإنتاج تبعاً لكل كاتب ، وهـذا ما لا نجده فى مؤلفات جابر

جابر الحقيقى

بعد ذلك نخرج بالنتائج الآتية :

أولاً : إن كلمة Gèbèr فى الكتب اللاتينية قد استعملت ترجمة لاسم جابر العربى

ثانياً : إنه وجد فعلاً شخص عربى كيميائى مسلم هو جابر ابن حيان .

ثالثاً : إن الكتب الكيميائية العربية لهذا المؤلف قد نقلت إلى اللاتينية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد

رابعاً : كثيراً ما كان المترجم اللاتينى يستعيض عن الترجمة الحرفية للكتب العربية بترجمة مع تصرف

خامساً : قسطاس الأصل العربى للكتب المفقودة ، يجب أن يكون عن طريق البحث فى المحتويات أولاً وفى الأسلوب ثانياً

من هو جابر ازده ؟

قال ابن النديم : « هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفى المعروف بالصوفى ، واختلف الناس فى أمره : فقالت الشيعة إنه من كبارهم وأحد الأبواب ، وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق رضى الله عنه ، وكان من أهل الكوفة . وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم . وله فى المنطق والفلسفة مصنفات . وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه فى عصره وأن أمره كان مكتوماً ، وزعموا أنه كان يتنقل فى البلدان ولا يستقر فى بلد خوفاً من السلطان على نفسه ، وقيل إنه من جملة البرامكة وكان منقطعاً إلى جعفر بن يحيى ، فمن زعم هذا قال إنه عنى بسيده جعفر البرمكى وقالت الشيعة إنما عنى جعفر الصادق ...

« وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين إن هذا الرجل يعنى جابراً ، لا أصل له ولا حقيقة ، وبعضهم قال إنه ما صنف ، إن كان له حقيقة ، إلا كتاب الرحمة وإن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها ، وأنا أقول إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوى على ألفى ورقة ، يتعب قريحته وفكره لإخراجه ويتعب يده وجسمه لنسخه ثم يخلد لغيره إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل ، وإن ذلك لا يستمر على أحد ، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، وأى فائدة فى هذا وأى عائدة ؟ والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصنيفاته أعظم وأكثر ، ولهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة أنا أوردها فى مواضعها ، وكتب فى معانى شتى من العلوم قد ذكرتها فى مواضعها من الكتاب ، وقد قيل إن أصله من خراسان والرازى يقول فى كتبه المؤلفة فى الصنعة[1] : قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان[2] »

(١) الصنعة يعنى الكيمياء

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٥٤ ط فلوجل

وقال القفطى : « جابر بن حيان الصوفى الكوفى كان متقدماً فى العلوم الطبيعية بارعاً فى صناعة الكيمياء وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة ، وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقدماً فى العلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام ... وذكر محمد بن سعيد السرقسطى المعروف بابن المشاط الاصطرلابى الأندلسى أنه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفاً فى عمل الاصطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير لها »[1]

ونحن إذا سلمنا بوجهة نظر ابن النديم ؛ فإننا نستطيع أن ننسق من جديد ما يقوله « الفهرست » ، وأن نعيد مبنى هيكل حياة جابر بن حيان ؛ فإذا كان جعفر الصادق الذى عاش من ٦٩٩ — ٧٦٥ م أى ٨٩ — ١٥٥ هـ هو أول أصدقاء جابر ومعلميه ، فإن تاريخ ميلاد هذا الأخير حوالى سنة ٧٣٠ م أى حوالى ١٢٠ هـ وهكذا يمكن أن يكون قد ارتبط ، وهو فى سن الستين أو السبعين ، بعلاقة ما مع البرامكة . ولا يجد الجلدكى غرابة فى أن يكون لجابر نشاط أدبى عظيم لأغراض علمية وفلسفية وإلهية

والبرهان على حياة جابر وتنظيمها أثبت فى كتاب الجلدكى « البرهان فى أسرار علم الميزان »[2]. جاء فى هذا المخطوط : الأستاذ الكبير جابر بن حيان ولد فى الكوفة ، وهو من قبيلة أسد فهو طوسى الأصل صوفى المذهب ، تتلمذ فى صباه على حرابى حميرات أحد المعمرين . وذكر لنا جابر أن حميرات هذا قد عاش أربعمائة سنة ؛ أى أنه ولد فى سنة ٢٠٠ قبل الهجرة وعاش حتى حكم هارون الرشيد ، أى أنه مات سنة ١٧٠ هـ تقريباً . وعن هذا المعمر أخذ جابر العلم فى صباه ؛ ثم رحل إلى حيث يوجد الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه وتتلمذ عليه وصار بعده إماماً . ثم اتصل بعد ذلك بالبرامكة ومارس تحت ظلهم الكثير من التجارب ، وعن طريق جعفر البرمكى اتصل اتصالاً مباشراً بهارون الرشيد وأهدى إليه الكثير من كتبه

وعلى هذا الأساس فإن جابراً يعد أستاذاً للكيمياء . ومما ساعده على ذلك أنه أحضر فى أيامه الكثير من المؤلفات الكيميائية اليونانية من بيزنطة إلى بلاط الخليفة فى بغداد . أضف إلى ذلك أن جابراً نفسه قد انهمك فى الفلسفة حيناً من الزمن ثم مات وله من العمر تسعون عاماً أى حوالى سنة ٢١٠ هـ أى ٨٢٠ م . بعد تصنيفه لثلاثة آلاف رسالة وكتاب

الخواص العلمية لكيمياء جابر

كان جابر بن حيان أول من فطن إلى الناحية التجريبية الخالصة فى الكيمياء ، وبهذه الوسيلة تيسر له أن يأخذ بيد هذا العلم الناشئ فى ناحيتيه النظرية والعملية ، ويمكن أن نتتبع أثر جابر هذا فى كيمياء وكيميائى أوربا

فمن الناحية العملية يصف لنا جابر طرق التبخير ، والتكوير والترشيح ، والذوبان والتعطير والتبلور ! كما وصف أيضاً الكثير من طرق التحضير الكيميائى ، كالزنجفر وأكسيد الخارصين ، كما عرف تماماً كيف يُحضر حامضا الكبريتيك والأزوتيك ، وحجر السنب ، والقلوى والسلمونيك وملح البارود .

ولقد اقتبست اللاتينية عن العربية بفضل مؤلفات جابر ابن حيان الكيميائية بعض الاصطلاحات الكيميائية التى لازالت تستعمل فى اللغات الأوربية مثل البوتقة Aludel والأنبيق Alimbic والتوتيا Tutia التى هى أكسيد الخارصين ، والقلوى والزاج Realgar الذى هو كبريت الخارصين

الأسس العامة التى قامت عليها كيمياء جابر

بينا كيف أن كيمياء جابر إنما تقوم على أسس تجريبية ؛ ويرى الأستاذ كراوس أن كيمياء جابر مؤسسة كذلك على أسس فلسفية ، ويقرر أن هذه النظرية الفلسفية قد اقتبست إلى حد كبير من طبيعة أرسطو ، وجابر نفسه يعيد ذكر الكثير من عبارات أرسطو كما يذكر بعض فقرات وتعليقات على : الإسكندر الأفروديسى ، وطيمسطس وسمبليكيوس ونورفوريوس وغيرهم . وكذلك نرى فى مؤلفات جابر ذكراً لمؤلفات أفلاطون وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وأرشميدس ، وبين هؤلاء المؤلفين الكثيرون ممن لم تفقد أصول مؤلفاتهم اليونانية ، وبالدراسة المقارنة أثبت أنه ليس هناك مؤلف كيميائى فى الإسلام على معرفة واسعة النطاق بالأدب العلمى القديم ، ومؤلفاته لها صبغة دوائر المعارف إلا جابر بن حيان ومؤلفاته ، هذه

(١) القفطى : أخبار الحكماء ص ١١١ ط القاهرة

(٢) الجلدكى توفى سنة ١٣٦٠ م وكتابه السابق الذكر مخطوط ١٥ - ١٥

المؤلفات التي تقرب من أن تكون دائرة معارف إسلامية تعبر عن معارف عصره تماماً. وأساس العلم الجابري هو الميزان، وهو في نفس الوقت الذي يبيّن لنا وحدة العلم الجابري ، ونحن كي نستطيع فهم هذا الأساس وهذه الوحدة ، يجب أن نعدد المعاني المختلفة لهذا الميزان :

أولاً — الوزن النوعي

ثانياً — وزن الكيميائيين القدماء الذي يحدد امتزاج العناصر بعضها ببعض

ثالثاً — ميزان الحروف : كان يرى أن حروف اللغة العربية على صلة بالخواص الأربع : الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف، وهو يرى أن ميزان الحروف هذا لا ينطبق على عالم ما تحت القمر فقط إنما كذلك على الكائنات الميتافيزيقية مثل العقل والروح والمادة والمكان والزمان

رابعاً : والميزان هو المبدأ الميتافيزيقي للواحدية العلمية monisme scientifique ، ويظهر هنا أن تصور أفلاطون للواحد لا يمكن أن يكون إلا ذا أثر

خامساً : وأخيراً فإن الميزان يتفرع عن تفسير مجازي طويل لآيات القرآن عن ميزان الحكم في العالم الآخر، وهذا هو ما يوجد إجنوزية الإسلام التي حاول جابر أن يربط بها مذهبه في الدين

أثر جابر في الدراسات الكيميائية

جابر في نظر كيميائي الإسلام أستاذ الصنعة الأكبر ، ولقد ترك جابر أثراً أيس من السهل الإقلال من شأنه، ونكتفي بأن نشير إلى أنه من خيرة تلاميذ مدرسة جابر بن حيان في الكيمياء: الخرقي، ابن عياض المصري الإخميمي ، وذو النون المصري ، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، ومسلمة بن أحمد الماجريطي ، والطغرائي وابن وحشية ، والإكيمي المصري ، وأبو القبردان النصيبي(؟)

أما في العالم الأوربي فأغلب أعمال جابر الكيميائية إن لم تكن كلها مترجمة إلى اللاتينية مطبوعة في المجموعات التالية :

1. Treatrum chemicum
2. Bibliothecae chemia
3. Artis auriferae quam chemicam vacant. [Bâle
4. Artis chemical principes. [Bâle.

وهذه التراجم اللاتينية تنقسم إلى قسمين :

قسم أخذ فيه بمنهج الترجمة الحرفية فخرج غير متين الأسلوب ولا قوي التركيب . وقسم أخذ فيه بمنهج الترجمة مع تصرف فجمع فيه بين دقة التعبير العلمي وبين متانة الأسلوب الأدبي ، وبين وضوح الفكر ورونق التنسيق وجمال التقسيم

وهذه التراجم اللاتينية لكيمياء جابر إنما سادت التفكير الأوربي العلمي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر حينما عرفت كتب جابر العلمية ، وإن كان بعض المترجمين قد انتهزوا فرصة فقد الأصول العربية لهذه التراجم اللاتينية وضياعها ، فحاولوا أن يخرجوا بهذه التراجم عن دائرة الفكر العربي الاسلامي ، فإن هذه المحاولات مقضي عليها بالفشل ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على قيمة هذه المؤلفات وعظيم تأثيرها على الفكر اللاتيني في القرون الوسطى

وإني لا أعدو أن أكون مقرراً للواقع حين أقول إن كيمياء جابر يمكن أن نعدها إلى حد ما أساساً للكيمياء الحديثة ؛ ذلك لأن التراجم اللاتينية لأعمال جابر بن حيان طبعت في القرن السادس عشر ، ثم أعيد طبعها في القرن الثامن عشر ، ولا بد لهذه الأعمال العظيمة أن تؤثر في عقليات المفكرين سواء أكان هذا التأثير من ناحية سلبية أم من ناحية إيجابية أم هو بين السلب والإيجاب

* * *

هذه هي مشكلة جابر بن حيان في وضعها الصحيح ، وبهذا نكون قد أزحنا بعض العبء الثقيل الذي يهظ أعناقنا نحن دارسي التراث الإسلامي ، وفقنا الله جميعاً لإحياء هذا التراث الخالد .

(تم البحث) أحمد زكي صالح

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ،
و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة في مجلدين. وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد .